

{ التعددية والمجتمع المدني في الفكر السياسي المعاصر "محاولة للفهم" }

الاستاذ المساعد الدكتور

عامر حسن فياض

كلية العلوم السياسية جامعة بغداد

المقدمة

يقول مثل صيني "اذا سالت ستكون جاهلاً لمدة خمس دقائق، واذا لم تسأل ستظل جاهلاً طيلة حياتك". ويقدر تعلق الامر باسئلة التعددية السياسية والتنوع المجتمعي يذكر الروائي الفرنسي (برنار فيرير في رواية "النمل" ان "الطبيعة تستمد قوتها من التنوع، وتحتاج الى الطبيين والخبثاء، والمجانين والبائسين والرياضيين والمرضى، والمحدودين والمشوهين والمبتهجين والخزائي، والاذكياء والاغبياء، والانانيين والكرام، والصغار والكبار، والسود والصفرة، والحمرة والبيضاء..

كما ان الطبيعة تحتاج الى جميع الاديان والفلسفات والعصبيات وصنوف الحكمة اما الخطر الوحيد هو في قيام احد هذه الاصناف بازالة الاخر من الوجود"⁽¹⁾.

وفي سياق تفصيل التنوع يذكر (ادمون ويلز) في موسوعة (العلم النسبي والمطلق) ان العلم والعلماء وجدوا ان حقول الذرة المخصصة اصطناعياً من قبل الانسان والمكونة من قوائم مأخوذة من افضل العرائس تتلف باكملها عند ظهور ابسط الامراض، في حين ان حقول الذرة البرية المكونة من عدة سلالات مختلفة، ولكل منها خصوصيتها ونقاط ضعفها وعيوبها، تستطيع جميعها ان تصمد في وجه الاوبئة.. عليه فان الطبيعة تكره النسقية الواحدة وتحب التنوع، وكان في ذلك كنه عبقريتها"⁽²⁾.

ماهية التعددية في اللغة والفلسفة:

في اللغة مفهوم التعددية (Pluralism) اصلاً الى كلمة "تعدد". ولغوياً يقال "تعدد الشيء أي صار ذا عدد. فنقول تعدد الاصول، تعدد النفوس، تعدد الحقائق، تعدد الالهة، تعدد الغايات، تعدد معاني الالفاظ، تعدد القيم.. الخ"⁽³⁾.

(1) امون ويلز، موسوعة العلم النسبي، عن رواية النمل للرأس الفرنسي برنار فيرير، غريب، بمثل الشيخ حسين، الدار الجماهيرية للنشر، سرت، ليبيا، ط ١، ١٩٩٥، ص ٢١٨.

(2) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

(3) جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالالفاظ العربية والانجليزية والفرنسية واللاتينية، الجزء الاول، ص ٣٠٢.

وتشير المعاجم الفلسفية الى ان التعددية تعني "المتعدد او المتكثر"، ففي الفلاسفة المثالية فان التعددية تعني عند انصار هذه الفلسفة الاشارة الى ان الواقع يتكون من جواهر روحية مستقلة احدها عن الاخر. بمعنى ان العالم كما يقول الفيلسوف الالمانى المثالى (لينتز) هو "عبارة عن جملة من الوحدات الروحية المنغلقة على نفسها"، غير ان انصار التعددية في هذه الفلسفة ينتهون التأكيد على ان (ارادة الاله هي التي تنسق العلاقة بين هذه الجواهر الروحية المنغلقة على نفسها)⁽⁴⁾.

تطور مفهوم التعددية في الفكر السياسي والاجتماعي:

تؤكد الموسوعة السياسية ان التعددية هي مفهوم ليبرالي ينظر الى المجتمع على انه متكون من روابط سياسية وغير سياسية متعددة، ذات مصالح مشروعة متفرقة. ويذهب اصحاب هذا المفهوم الى ان التعدد والاختلاف يحول دون تمرکز الحكم ويساعد على تحقيق المشاركة وتوزيع المنافع، ويعد ليبرالي الولايات المتحدة الامريكية كمثال للتعددية غير ان كلا من اليسار الجديد واليمين الجديد يرفض هذا المفهوم ويعارضه⁽⁵⁾.

لقد شغلت التعددية العقل السياسي الحديث بعد ان تم صقلها وبلورتها على يد المفكر الفرنسي (مونتيكيو ١٧٨٩-١٧٥٥) صاحب الكتاب المشهور الذي يحمل عنوان (روح القوانين) والذي اقترن اسمه بمبدأ الفصل ما

بين السلطات. كان (مونتيكيو) والتقاليد والقوانين والمؤسسات والمصالح، وأنشغل بعدها بالمطلوب والية التعامل مع هذا الواقع المتنوع باحلال تنسيق واضح متجانس محل التنوع غير المتجانس⁽⁶⁾. كيف ؟

يتضح اهتمام (مونتيكيو) بهذا الموضوع من خلال اعجابه بالنظام السياسي في انكلترا حينذاك. فقد كرس قسماً بارزاً من كتابه لهذا النظام ليؤكد حقيقة ان كل دولة لها اهتمام بموضوع معين. فاسباطة مثلاً اهتمت بموضوع الحرب او مرسيليا الفرنسية اهتمت بموضوع التجارة، اما انكلترا فانها اهتمت بموضوع الحرية السياسية، والأخيرة هي الموضوع المباشر في دستورهما غير المكتوب الذي اعتمد مبدأ الفصل ما بين السلطات الثلاثة (الاشتراكية-التنفيذية-القضائية).

لاحظ (مونتيكيو) ان في انكلترا هناك ملكا يمسك بالسلطة التنفيذية، والى جانب هذه السلطة سلطة تشريعية تتمثل بمجلسين هما مجلس اللوردات الذي يمثل النبلاء، ومجلس العموم الذي يمثل الشعب. وهناك سلطة اخرى هي السلطة القضائية.

(4) المعجم الفلسفي المختصر، مجموعة مؤلفين، موسكو، دار التقدم، ١٩٨٦، ص ١٣٢. واطر ايضاً د. عامر حسن فياض، صيرورة التعددية السياسية في تاريخ العراق الحديث، مجلة دراسات عربية، بيروت، العدد ٣/ شباط ١٩٩٤.

(5) عبد الوهاب الكيالي، الموسوعة السياسية، الجزء الاول، الدار العربية، بيروت، ص ٦٧٨.

(6) للتفاصيل في مكمونشكيو راجع عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي الحديث، بغداد، ص ٩٦-١٢٠.

أما التتوعات على مختلف صورها السياسية فإن حاضنتها هي السلطة التشريعية ومجلسيها. أي أن السلطة التشريعية هي التي ستمثل التتوعات والتعدد في المجتمع من كل الفئات في مجلسي اللوردات والعموم، وهي التي تتابع تطبيق القوانين من قبل السلطة التنفيذية بصورة سلمية، وهي التي تمتك الحق في اللجوء إلى منع السلطة التنفيذية من ممارسة مهامها بشكل أو بآخر.

وهنا يتضمن (مونتكيبو) ويستهدف من وراء هذا النظام بتحقيق (التوازن للقوى الاجتماعية والسياسية) أي اعتبار أن مثل هذا التوازن يعبر عن التتوع المتجانس الذي استهدفه (مونتكيبو). وهذا التوازن هو الذي يحافظ على التتوع وهو الذي يضمن الحرية السياسية بل هو شرط للحرية السياسية.

بعد (مونتكيبو) راح مفهوم التعددية ينسحب على كل مفاصل الحياة المجتمعية (السياسية-الاجتماعية-الاقتصادية-الثقافية). فلم يقتصر فقط على ضرورة الفصل ما بين السلطات وفتح صناديق الانتخابات أمام القوى والفئات الاجتماعية، بل التأكيد أيضاً، على ضرورة تعدد الأحزاب لضمان التعددية الحزبية وعلى مشروعية الاختلاف في الآراء والمصالح لسائر الفئات والاتجاهات والأصناف السياسية والاجتماعية والثقافية لضمان تعددية الرأي.

التعددية مقابل الوحدية

من الملاحظ أن العقل الانساني، عبر التاريخ، قدم تبريرات تتاصر وتدافع على الوحدية، وتطمس التتوعات والتمايزات الاجتماعية والسياسية لمصلحة جماعة أو طبقة صغيرة.

ابتداءً نظم ديمقراطية الاقلية (جماعة الاحرار) في الدويلات اليونانية مروراً بديكتاتوريات صفوة الشيوخ والفرسان في الامبراطورية الرومانية، أو حكم طبقة الاقطاعيين من ملاك الارض الكبار في أوروبا العصور الوسطى، أو نظريات روح الشعب وسيادة الدولة في الفكر النازي والفاشي، وديكتاتورية البروليتاريا (الطبقة العاملة) في الفكر الماركسي اللينيني أو غيرها من الافكار والممارسات الوحدية التي حاولت تبرير الحكم الفردي أو القوي أو الطبقي أو الشعبوي الكلياني المطلق استناداً إلى التتكر أو التجاهل أو القمع أو الالغاء للتمايزات الاجتماعية والسياسية والثقافية داخل المجتمع، وكذلك استناداً إلى التتكر أو التجاهل أو القمع أو الالغاء لحق المتتوعين في التعبير عن مصالحهم أو لحقهم بالمشاركة في إدارة الشأن العام.

وهنا جاءت التعددية لآقرار ما يأتي:

أولاً: حق الوجود: أي حق التمايزات الاجتماعية والسياسية في الوجود.

ثانياً: حق التعبير: أي حق التمايزات الاجتماعية والسياسية في التعبير عن مصالحها والدفاع عن نفسها.

ثالثاً: حق المشاركة: أي حق التمايزات الاجتماعية والسياسية بالمشاركة في إدارة

الشؤون العامة وفي اتخاذ القرارات السياسية داخل المجتمع السياسي.
وعليه فإن التراث الفكري السياسي الانساني بصمات كثيرة تؤكد فكرة التعددية.
وهذه البصمات تتلخص بما يأتي:

١. مناهضة الاستبداد من اجل الحرية والعدل والاداء السياسي الشريد.
 ٢. ضرورة الاعتراف بالتعددية السياسية داخل المجتمع بما فيها التعددية الحزبية وتعددية الرأي ومبدأ الفصل ما بين السلطات.
 ٣. ضرورة وجود نظام قانوني يؤمن لكافة الفئات والقوى المجتمعية الحق في التنظيم المستقل والتعبير عن آرائها، اضافة الى ضرورة التسليم بالطموحات المشروعة لمختلف الفئات المجتمعية في سعيها السلمي للوصول الى السلطة السياسية تحت مظلة تشريعات قانونية دستورية تسمح بذلك.
- مستويات التعددية وصيغ التعبير عنها:

من المنفق عند المعنيين ان مرتكز التعددية يقوم على مستويين هما^(٧):
المستوى الاول: مستوى الفرد وبموجبه هناك فكرة تؤكد "ان لا أحد يملك الحقيقة كلها، وبالتالي ليس من حق احد مصادرة اراء وافكار اخرى، وان بدت غير صحيحة من وجهة نظر ما".

المستوى الثاني: المستوى الاجتماعي فالملاحظ ان اكتشاف ثراء وتعدد تجارب الجماعات والشعوب الاخرى دفع الاوروبيين بالتعرف على تلك الشعوب والجماعات خارج اوروبا وتوسيع معارفهم بالنسبة الى العالم الذي كان مقتصرأ في السابق، على العالم المسيحي ليدركوا وجود مجتمعات متباينة عنهم في العرق واللون والدين والعادات والتقاليد وانظمة الحكم وانماط الحياة وطرق التفكير... الخ.

ان ما تقدم يؤكد جملة حقائق ابرزها:

١. ان التعدد هو واقع فعلي حتى داخل المجتمع الواحد المنقسم عمودياً الى شئات وطبقات متميزة في الملكية والنفوذ والايديولوجيات ومستويات المشاركة في انتاج رأس المال الرمزي، هذا بالاضافة الى ان المجتمع، كل مجتمع، منقسم افقياً الى انقسامات اثنية ودينية ولغوية ومذهبية. وهي ترتبط بالانقسام الاجتماعي للعمل بين التجارة والصناعة والزراعة والحرف، وكذلك الانقسام بين العمل الذهني والعمل العضلي وبين الرجل والمرأة.

٢. ان التعددية تعبر عن نفسها في المجتمع من خلال مجموعة صيغ ابرزها:

- تيارات ثقافية (يساري-يميني/محافظ-مجدد/تقليدي-معاصر).

(٧) كريم ابو حلاف، اشكالية مفهوم المجتمع المدني، دار الاهالي، دمشق، ط١، ١٩٩٨، ص ٣٨ وما بعدها.

- حركات اجتماعية (طلابية-نسائية-عمالية-شبابية)

- احزاب سياسية.

- تعاون نقابي وجمعيات واتحادات.

٣. ان مبدأ التعددية ينتهي الى بناء التحالفات بعد المساومة والمفاوضة بين التمايزات الاجتماعية والسياسية لكسب الرأي العام على المستوى السياسي.

٤. يتصل مبدأ التعددية بالتجربة الديمقراطية الليبرالية، لان التجربة الاخيرة تعتمد مبادئ وحقوق تسمح بالاعتراف بالتعددية من حيث الوجود وحق التعبير وحق المشاركة للتمايزات في الحياة المجتمعية العامة. فالليبرالية اذا كانت تقوم على حق المعارضة في الوجود والعمل، وعلى دور كبير لوسائل الاتصال بوصفها وسائل تعبير عن المصالح لجميع التنوعات والتمايزات في المجتمع، وعلى حرية التعبير، وعلى مبدأ التداول السلمي للسلطة.. فان هذه المقومات كلها تخدم التعددية من حيث الاعتراف بالتعدد وبالتعبير عن التعدد وحق المشاركة للمتعددين في الشؤون العامة.

٥. يتحدد مبدأ التعددية من مبادئ اخرى ويشكل معها منظومة متكاملة، هي منظومة الديمقراطية التي تتشكل ماهيتها في التقرير بحق الاغلبية السياسية واحترام اراء الاقلية السياسية والتقرير بحق المساواة امام القانون.

٦. ترتبط التعددية بمبدأ الفصل ما بين السلطات، حيث ان النظم الاستبدادية تجعل المجتمع بالكامل منصهراً داخل كيان الدولة. اما في النظم الديمقراطية فان المجتمع لا يذوب داخل كيان الدولة. فلا تكون جميع السلطات متمركزة في الدولة. بمعنى اخر لابد ان يتواجد الى جانب السلطة العامة (سلطة الدولة) دوائر في العمل مستقلة استقلالاً ذاتياً (الحياة الاسرية، المشروعات الاقتصادية، الاديان، المهن، النقابات، القضاء، العلم.. الخ) ولا تخضع قواعد سلوك هذه الدوائر للسلطة السياسية.

وعلى اساس ذلك فان السلطة الديمقراطية الليبرالية تقبل بوجود التعددية وتوزع السلطة عبر مؤسسات تتمدد صلاحياتها ويراقب بعضها بعضاً بالتبادل. ولا يتحقق ذلك الا بالبدء برأس الهرم السياسي عبر فصل السلطات الثلاث. أي منع السلطة التنفيذية من التحكم والتدخل بشؤون المشرع والقاضي بهدف الوصول الى حالة من التوازن ما بين السلطات الثلاث.

باختصار نقول ان التعددية تعني تعدد الجماعات الاجتماعية التي تتبنى مفاهيم متميزة للواقع وحقائقه وللمستقبل السياسي الخاص بهذا الواقع. وبهذا المعنى فان التعددية الاجتماعية هي ظاهرة ملازمة لكل مجتمع بشري، فقد عرف هذا المجتمع او ذاك ظواهر التبادل السلمي والملكية الخاصة والدولة، بل وقبل ذلك وبعده، فان التمايزات الثقافية والعرقية والدينية بما تفرضه من تمايزات في الرؤى والمواقف السياسي هي تمايزات

ملازمة لطبيعة المجتمع البشري ذاته.

وفي سياق هذا الواقع الاجتماعي والثقافي والديني المتميز يتحدد مفهوم التعددية السياسية بوصفها "حق الجماعات الاجتماعية والسياسية في الاعلان عن وجودها والتعبير عن نفسها، واكثر من ذلك حقها في المشاركة السياسية بان تكون لها منابرها وقنواتها وتنظيماتها المستقلة التي تمكنها من الاعلان عن رؤاها ومواقفها السياسية، بل تمكنها من تحقيق هذه الرؤى في مجال الفصل السياسي"⁽⁸⁾.

التعددية والسياسة المقارنة:

نتلمس حضور التعددية منهجاً او اطاراً تحليلياً في حقل السياسة المقارنة حيث يدخل مبدأ التعددية ضمن المداخل التحليلية ذات المرجعية الليبرالية.. فكل نموذج ليبرالي هو نموذج تعددي ويتضح ذلك على مستويين هما مستوى المجتمع ومستوى الدولة. فعلى مستوى المجتمع فان كل مجتمع يتكون من جماعات متفاعلة مع بعضها البعض، اما شكل هذا التفاعل بين الجماعات داخل المجتمع فانه يختلف من نموذج الى اخر.

وفي هذا الشأن نقراً ما يفيد بانه "وفق النموذج الليبرالي التعددي فان الشكل الرئيسي للتفاعل بين الجماعات هو التفاوض والمساومة"⁽⁹⁾. بينما يفترض النموذج الماركسي "ان الصراع الطبقي هو السمة الاساسية لعملية التفاعل بين الجماعات والطبقات، اما بالنسبة للنموذج وباختصار على مستوى العلاقات بين الجماعات المتميزة داخل المجتمع، فان الصراع هو نمط التفاعل وفق النموذج الماركسي، وان التخطيط الليبرقراطي هو نمط التفاعل وفق النموذج الكورباتوري، وان المساومات هي نمط التفاعل وفق النموذج الليبرالي التعددي"⁽¹⁰⁾.

اما على مستوى الدولة ودو الدولة فان المدرسة الليبرالية التعددية تؤكد بان دور الدولة ف الحياة السياسية سيظل مقتصرأ على تنظيم عملية التنافس بين جماعات المصالح المختلفة. وهذه المنافسة هي اساس العملية السياسية، وهي المحرك لعملية التغيير والتطور في كل مجتمع يحرص على ما هو آت ور نشغل بما فات.

في اشكالية مفهوم المجتمع المدني

ان مفهوم المجتمع المدني يظهر بشكله الخالص، انما ظهر، كما هو حال ظهور وتبلور مفهوم الديمقراطية، من خلال تطور تاريخي يفسره منتظم فكري فلسفي مر بمرحلة تبلور مديدة منذ بروزها بهيئة نطق في فكر الفيلسوف الانجليزي (جون

(8) محمد نور فرحان، التعددية السياسية في العالم العربي، مجلة الوحدة، الرباط، المجلس القومي للثقافة العربية، العدد ٩١ لسنة ١٩٩٢، ص ٧.

(9) محمد زاهي المغربي، قراءات في السياسة المقارنة، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، ١٩٩٨، ص ٢٠٠.

(10) المصدر نفسه، ص ١٩٥.

لوك (١٦٩١)، أو بصورة ناضجة في فكر الفرنسي (جان جاك روسو - القرن ١٨)، أو أكثر نضجاً في فلسفة الحق لـ (هيجل) فيما بعد^(١١).

وقد حاول كل من (لوك) و(روسو) و(هيجل) ان يربطوا نشوء المجتمع المدني بعملية "انتقال" و"خروج" التجمع البشري من حالة الى اخرى، فقدموا الصياغات الاولى لمفهوم المجتمع المدني بوصفه كل تجمع بشري انتقل او خرج من حالة الطبيعة القطرية البدائية الى الحالة السياسية المدنية التي تتمثل بوجود هيئة سياسية قائمة على اتفاق تعاقدية. وبهذا المعنى فان المجتمع المدني هو المجتمع المنظم سياسياً، او انه المجتمع المدني الذي يعبر عن "كل" واحد لا تمايز فيه، أي (كل) يضم المجتمع والدولة معاً^(١٢).

وفي حدود التطور التاريخي لمفهوم المجتمع المدني في الفكر السياسي الحديث المعاصر نؤكد ان ظهور المجتمع المدني، كمفهوم، في حلقة الاولى عند المفكر الانجليزي (توماس هوبز) لم يكن منفصلاً عن الدولة، بل كان مجرد تعبير عن انتقال مبدأ السيادة (بمعنى القدرة او الهيمنة او السيطرة او النفوذ) من السماء (أي الحكم بالحق الالهي) الى الارض (أي الحكم على اساس العقد الاجتماعي) رغم ان تصور الحكم الذي رافق (هوبز) كان حكماً ملكياً مطلقاً غير انه ظل داعياً الى مجتمع مدني لم ينفصل عن المجتمع السياسي المتمثل بالدولة الوضعية.

بعد (هوبز) فان افتراض طبيعة المجتمع او تصور وجوده دون دولة عند المفكر الانجليزي، (جون لوك) بشكل خاص، هو افتراض وجود افراد اجتماعيين في حالتهم الطبيعية، أي دون دولة وضعية، وهو الافتراض الذي يبني عليه المجتمع المدني في حلقة الثانية كمجتمع مدين قائم بذاته، أي بانفصال عن الدولة^(١٣).

وقد اضاف المفكر الفرنسي (مونتسكيو) وفيما بعد الكاتب الفرنسي (الكسي دي توكفيل) برؤيتهما ليجعلا من المجتمع المدني وسيط يوازن الدولة ويحد من تأثيرها المباشر في الفرد. او ان هذا المجتمع على حد تعبير (هيجل) يمثل "الحيز الاجتماعي والاخلاقي الواقع بين العائلة والدولة"^(١٤).

وقد تحول افتراض (جون لوك) لمجتمع خارج الدولة في المنظور الليبرالي الى السوق، وبعد ان المجتمع المستند الى العلاقات المتبادلة بين الافراد في السوق هو ما ينتج مجتمعاً مدنياً خارج الدولة اصبح السوق هو نموذج المجتمع، ولم تعد هنالك حاجة لمصطلح المجتمع المدني.

(١١) فالج عبد الجبار، الدولة والمجتمع المدني والتحول الديمقراطي في العراق، مركز ابن خلدون درا الامين للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٤٢.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٤٣.

(١٣) عزمي بشارة، المجتمع المدني (دراسة نقدية)، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، بيروت، ط ١، ١٩٩٨، ص ١٢.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٢.

ومما يلفت النظر ان الماركسية التقليدية التي سادت لاحقاً (في نموذجها السوفياتي خصوصاً) تعاملت مع مفهوم المجتمع المدني بأسلوب التجاهل والإقصاء والتهميش. فكثيراً ما أهملت الماركسية اللينينية المجتمع المدني واعابت عليه بوصفه مفهوماً برجوازيًا، لان الحديث عنه -عند الماركسيين السوفيت- يعني الغطاء والتبرير لعدم الحديث بصراحة، وبكل وضوح، عن صراع الطبقات والمآسي المترتبة عليه⁽¹⁵⁾.

والحقيقة ان (كارل ماركس) في دره علي (هيجل) والهيكلية، نظر الى المجتمع المدني بوصفه الأساس الواقعي للدولة، وفضاءاً للتنافس والصراع، ليس الاقتصادي فقط (كما يرى هيجل) بل السياسي والطبقي أيضاً. وهذا الفضاء سوف يخصه (ماركس) بفرع معرفي مستقل هو الاقتصاد السياسي.

ان ما يفسر عدول (ماركس) اللاحق عن استخدام مفهوم المجتمع المدني، واستبداله بمفهوم (المجتمع البرجوازي) في دراسته للاقتصاد الرأسمالي يمكن تأمسه وملاحظته في تأكيد (ماركس) ذاته، علي ان المجتمع المدني لا يمكن ان يبحث الا في الاقتصاد السياسية. وهذا التأكيد تكرر، لأكثر من مرة، في كتابه المشهور "مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي" وفي اجزاء من كتابه الأشهر "رأس المال"⁽¹⁶⁾.

بيد ان التطورات اللاحقة على ما كتبه (كارل ماركس) قد بينت ان المجتمع المدني يمثل الفضاء للتنافس والصراع بمختلف اشكاله (الاقتصادية، السياسية، الايديولوجية والثقافية) بين الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية كافة. وهذه التطورات التي شهدتها مفهوم المجتمع المدني ستكون موضع اهتمام المفكر الماركسي الايطالي (أنطونيو غرامشي). فهو الذي يرى ان هناك مستويين للمجتمع هما: المستوى الاول: يمكن ان يدعى المجتمع المدني بوصفه مجموعة التظلمات التي غالباً ما تسمى تنظيمات خاصة.

والمستوى الثاني: وبموجبه يدعى المجتمع المدني بالمجتمع السياسي او الدولة. ويحتوي المجتمع المدني عند (غرامشي) على العلاقات الثقافية والايديولوجية، كما يضم كل الشناط الروحي-الفعلي. واذا كان صحيحاً ما قاله (كارل ماركس) من ان المجتمع المدني هو البؤرة المركزية ومسرح التاريخ كله، فالمجتمع المدني عند كل من (ماركس) و(غرامشي) هو اللحظة الايجابية والفعالية في التطور التاريخي، وليس الدولة هي تلك اللحظة كما ورد عند (هيجل). غير ان اللحظة الايجابية والفعالية، أي المجتمع المدني، تمثل الظاهرة البنيوية التحتية (القاعدة) عند (ماركس)، بينما هي عند (غرامشي) تمثل لحظة فوق بنيوية (بناء فوقي). وهذا ما يفسر اهتمام (غرامشي) الواسع بقضايا الثقافة، واهتمامه الخاص بمفهوم المتقف والمتقنين عبر التفرقة الشهرية التي قام بها بين المتقف التقليدي والمتقف العضوي ودور الاخير في الهيمنة.

(15) كريم ابو حلاوة، اشكالية مفهوم المجتمع المدني، دار الاهالي، دمشق، ط١، ١٩٩٨، ص ٧٣.

(16) المصدر نفسه، ص ٧٦.

ان المجتمع المدني عند (غرامشي) يمثل المرحلة النهائية في تنظيم المصالح المختلفة، المتقدمة في القاعدة (البناء التحتي) كمرحلة انتقالية باتجاه الدولة. وهنا فان المجتمع المدني هو وجود خاص خارج نطاق الدولة رغم كونه على علاقة جوهرية بالدولة. بمعنى ادق انه الوسيط بين التشكلية الاقتصادية والدولة، وكلها تخص مرحلة محددة تاريخياً.

وعند (غرامشي) بشكل المجتمع المدني مع الدولة ما يعرف بالمنظومة السياسية في المجتمع. ويسمى (غرامشي) ذاته بـ(الدولة الموسعة) أي منظومة سياسية بشقيها المدني والسياسي. وبهذا المعنى يقول (غرامشي): "ان الدولة هي المجتمع السياسي زائد المجتمع المدني"⁽¹⁷⁾، بينما يحتوي المجتمع المدني على التنظيم السياسي للمجتمع باحزابه ونقابات وتياراته السياسية، فان الدولة تحتكر السلطة السياسية عبر اجهزتها ومؤسساتها المختلفة. وبهذا المعنى تكون العلاقة بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي علاقة جدلية. فيمكن للمجتمع المدني ان يكون مسانداً للدولة او معارضاً لها، ففي الحالة الاولى يشكل المجتمع المدني مصدر الشرعية لسلطة الدولة عبر مشاركة منظمات المجتمع وفئاته المختلفة في صنع القرار. اما في الحالة الثانية التي تتصدى الدولة بجهازها ومؤسساتها القمعية لكل اشكال الاضطراب والثورة، تبدو الدولة وكأن المجتمع هو الذي وجد من الجها لا العكس.

نلاحظ مما تقدم تداخل وتفاعل الدولة والمجتمع المدني عبر توافقهما تارة، وعبر تعارضهما تارة اخرى.

ومنذ (غرامشي) ثمة تطور مثير للاهتمام اخذ يفصح عن نفسه فيما يخص العلاقة بين الدولة والمجتمع. فبعد ان استحوذت الدولة ولفترة طويلة على اهتمام المفكرين، اخذ الاهتمام في ادبيات الفكر السياسي المعاصر، ينصب تدريجياً على دراسة المجتمع المدني ضمن اطار الاهتمام بالديمقراطية وحقوق الانسان والتنمية والعولمة وصدام الحضارات والعدالة الاجتماعية على المستوى العالمي.

وفي نطاق الفكر السياسي العربي لعل من المفارقات ان هذا الفكر لم يتعرف على مفهوم المجتمع المدني بحد ذاته، بل جاء هذا التعرف عبر الاهتمام المتزايد الذي لاقتته مؤلفات (غرامشي) في المنطقة العربية بعد السبعينات. لكن الاهتمام بمفهوم المجتمع المدني بدأ يتسرب الى الفكر العربي المعاصر بدءاً من ثمانينات القرن العشرين خصوصاً في بلدان المغرب العربي، حيث نوقش هذا المفهوم بغرض التفكير في ظروف التحول من الحزب الواحد الى التعددية الحزبية لاسيما في تونس والجزائر⁽¹⁸⁾.

ولعل اوضح استخدام لمفهوم المجتمع المدني بالمعنى الغرامشي، يمكن رصده في فصول كتاب "الفلسفة الاجتماعية" للدكتور (غانم هنا) الذي يركز فيه الاهتمام على تقصي

(17) المصدر نفسه، ص ٨٣.

(18) المصدر نفسه، ص ١٥٥.

الفرق بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي، وحدد فيه مكونات المجتمع المدني وخصوصية الفهم الغرامشي له من منظور الفلسفة النقدية. هذا بالإضافة الى الندوة البيت عقدت في تونس حول المجتمع المدني، ثم توالى الاهتمام بالمفهوم، عربياً، لينتقل الى حقل التداول الواسع على صفحات الصحف والمجلات. وفي عقد الندوات كما حدث في ندوة القاهرة عام ١٩٩٠، وندوة بيروت عام ١٩٩٢ وغيرها^(١٩).

والحقيقة انش يوع استخدام مصطلح "المجتمع المدني" قد زاد من تشوشه واضطرابه، وحجب ضرورات التفكير في تاصيله النظري، وغيب، الى حد بعيد، امكانية تناوله النقدي. فالمجتمع المدني يعرف على نحو اجرائي بانه "جملة المؤسسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تعمل في ميادينها المختلفة في استقلال عن سلطة الدولة لتحقيق اغراض متعددة منها، اغراض نقابية كالدفاع عن المصالح الاقتصادية لاجزاء النقابية، ومنها اغراض مهينة كما هو الحال في النقابات للارتفاع بمستوى المهنة والدفاع عن مصالح اعضائها، ومنها اغراض نقابية كما في اتحادات الكتاب والمثقفين والجمعيات الثقافية التي تهدف الى نشر الوعي الثقافي وفقاً لاتجاهات اصحاء كل جمعية، ومنها اغراض اجتماعية للاسهام في العمل الاجتماعي لتحقيق التنمية وبالتالي يمكن القول ان الامثلة البارزة لمؤسسات المجتمع المدني هي: الاحزاب السياسية، النقابات العمالية، النقابات المهنية، الجمعيات الاجتماعية والثقافية"^(٢٠).

وبين التحليل النقدي للتعريف الاجرائي السابق الذكر، ان جوهر المجتمع المدني ينطوي على اربعة عناصر رئيسية هي:

- العنصر الاول ويتمثل بفكرة (الطوعية) التي تميز تكوينات المجتمع المدني عن باقي التكوينات الاجتماعية المفروضة تحت أي اعتبار.
- العنصر الثاني ويشير الى فكرة (المؤسسية) التي تستغرق مجمل الحياة الحضرية تقريباً، والتي تشمل مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.
- العنصر الثالث ويتعلق بفكرة (العناية والدور) الذي نقوم به هذه التنظيمات والاهمية الكبرى (لاستقلالها) عن السلطة السياسية وعن هيمنة الدولة من حيث هي تنظيمات اجتماعية مستقلة تعمل في سياق روابط تشير الى علاقات التماسك والتضامن الاجتماعيين.

(١٩) انظر بحوث ومناقشات ندوة بيروت ١٩٩٢ ففي كتاب المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية (مركز دراسات الوحدة العربية) بيروت، لبنان، ط ١، ١٩٩٢.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٩٢. (سيف الدين عبد الفتاح اسماعيل) المجتمع المدني والدولة في الفكر والممارسة الاسلامية المعاصرة.

• العنصر الرابع ويكمن في ضرورة النظر الى مفهوم المجتمع المدني بوصفه جزءاً من منظومة مرتبطة به تشمل على مفاهيم مثل: المواطنة، حقوق الانسان، التنمية، المشاركة السياسية، الشرعية... الخ.

ان هذا المفهوم الاجرائي لا يكتمل دون ان نضع المجتمع المدني في سياق تطوره التاريخي، بكلمة اخرى ان عدم هدر السياق التاريخي لمفهوم المجتمع المدني سيجعل منه مفهوماً ديمقراطياً تنموياً يتصل بالبناء والتطور والتغيير، أي مفهوماً يتصل بالديمقراطية من جهة وبالتنمية من جهة اخرى.

وبالنتيجة فان مفهوم المجتمع المدني ينطوي على ثلاثة مقومات او اركان اساسية: الركن الاول هو الفصل الارادي، فالمجتمع المدني يتكون بالارادة الحرة لافراد، فهو غير الجماعة القرايية مثل الاسرة والبشرية والقبلية والطائفة. والركن الثاني هو التنظيم الاجتماعي، فالمجتمع المدني هو مجموعة التنظيمات وكل تنظيم فيها يضم افراداً او اضعاء اختاروا عضويته بمحض ارادتهم الحرة. اما الركن الثالث للمجتمع المدني فهو ركن اخلاقي سلوكي خاص بحق الاختلاف في الاراء وفي المصالح المادية والمعنوية. فهذا الركن هو جوهر الديمقراطية، بل ان الديمقراطية كما يقول (سعد الدين ابراهيم) هي (الجانب السياسي) للمجتمع المدني⁽²¹⁾.

(21) سعد الدين ابراهيم، المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في الوطن العربي، عن كتاب محمد زاهي المغربي، المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في ليبيا، مركز ابن خلدون، القاهرة، ص ٦٠-٥٦.

الخاتمة

في هذا البحث حاولنا بناء اطار نظري لمفهومي التعددية والمجتمع المدني في الفكر السياسي المعاصر، لان الاطر النظرية تبدو بمثابة "بناء متكامل من الافكار والمفاهيم يؤدي كل منها الى الآخر وتربط بينهما جميعاً رابطة واحدة"⁽²²⁾. وبقدر تعلق الامر بموضوع بحثنا تبدو التعددية لازمة من لوازم المجتمع المدني وبتربطهما معاً تولد الديمقراطية والاخيرة نريدها للعراق ذلك المجتمع المتعدد المتنوع الذي يعيش معادلة التاريخ السيء والمستقبل الصعب أي تاريخ الاستبداد فالاحتلال ومستقبل الديمقراطية والاستقلال.

فاذا كان التعدد والتنوع القومي والديني والسياسي يمثل حقيقة قائمة في العراق فالديمقراطية هي التي تأخذ بهذه الحقيقة وتنتقل بها من حقيقة تنوع غير متجانس الى حقيقة تنوع متجانس.

واذا كان العراق قد شهد حقيقة وجود مؤسسات مجتمع مدني فان هذه المؤسسات بالديمقراطية فقط ستؤدي وظيفة هذه الانتقال الى مجتمع متعدد ومتنوع متجانس. ولاجل كل ذلك كان اهتمامنا يمثل محاولة لفهم التعددية والمجتمع المدني في الفكر السياسي المعاصر.

(22) علي الدين هلال وآخرون، معجم المصطلحات السياسية، ط١، جامعة القاهرة، مركز البحوث والدراسات السياسية، ١٩٩٤، ص ٣٢.